قصة من كوبا

أمسية حزينة

بقلم أونيليو كاردوسو

في احدى الامسيات استضفنا بسرور رجلا من قريتنا ، تلك التي كان والدي موظفا فيها قبل ان يحال على التقاعد. وكنا متلهفين لانباء القرية بعد ان خلفناها وراءنا منذ زمن . والدي وجه السؤال الاول الى الزائر :

ـ ما هي اخبار عائلة جيمنز ، وماذا فعلوا بارضهم ؟

ـ ليست على ما يرام ، دون بريلو ، لقد خيبت الارض آمالهم.

زوجة ابي ، المرأة العجوز التي تعتني بنفسها دائما ، ارهفت السمع واخذت تنظر الى الاعلى وتحرك باصابعها رقعة العنوان المعلقة بقنينة الدواء التي في يدها .

اردف والدي معقبا على سؤاله :« ظننت انهم يجنون محصولا جيدا » .

كنت على وشك مغادرة البيت ، ولكني وقفت وسألت الرجل الضيف :

ـ سوزان لا تزال هناك ، اليست كذلك ؟

قبل ان يتفوه الرجل ، تجهم وجه زوجة ابي وتقلصت ملامحها بقوة .

ـ سوزان ماتت في العام المنصرم ، الا تدري ؟

ـ كلا ، انها لم تمت .

قلت هذا بلا ارادة حين سمعت جواب الرجل ، ثم عدلت من قامتي وكاني احاول تكذيب اذني والتخفيف من عنف الصدمة ، واردفت مؤكدا: « لا اصدق » .

مشيت ولكن والدي اوقفني :

ـ هل تريدها ان تعيش الى الابد ياولد ؟

ـ نعم اريدها كذلك . قلت ببساطة وهدوء .

ـ ما رأيك انت يا مانويلا ؟ سالت زوجة ابي بحنق ، لم تتفوه بكلمة بل ولم ترفع عينيها عن الرقعة المعلقة بقنينة الدواء ، لقد امست عاجزة عن فرض قسوتها علينا مثلما كانت تفعل ايام شبابها .

مسحة من الالم تغطي وجه ابي ، أتحسس خوفه من افلات زمام الموقف فجاة من الايدي ، وحين لم تتفوه مانويلا بشيء درت بوجهي نحو الرجل الضيف ، كيس الليمون الذي كان قد جلبه لنا من القرية لا يزال فوق المنضدة .

ـ كيف علمت بالخبر ، هل شاهدت وفاتها ؟

ـ « ياله من سؤال سخيف » . انفجر ابي قائلا .« هل تظن الرجل احد افراد عائلة سوزان ،ام ماذا ؟» .

كان ابي هائجا ، يغطي ثورته بابتسامة زائفة ليثبت انه لم يفقد اعصابه بعد ، الا انه لم يبد اية حركة . تجاهلت سؤاله ، زوجة ابي تحدق في قنينة الدواء وتقلبها بين يديها الذابلتين .

ـ الحقيقة ...

بدا الرجل يتكلم ، ولكن ابي قاطعه بعصبية :

ـ الحقيقة ماذا ..؟

الرجل يعود الى الكلام بهدوء :ـ

ـ الحقيقة لست من اقارب سوزان ولا من اصدقائها ، بل ولم اعش قريبا منها ، لكني شاهدت موتها صدفة ، كانت ميتة غريبة،لقد ماتت من الجوع ! .

استرقت من زوجة ابي نظرة لارى تاثير ما قيل على وجهها ،كانت صامتة لا تنبس بشيء ، فقط انحنت الى الامام ووضعت قنينة الدواء على المنضدة ،ثم تكلمت موجهة الكلام لابي :ـ

ـ لم يفدني هذا الدواء ابدا .

اراد ابي ان يقول شيئاما ليغير الموضوع ، لكني تجاهلته ،وسالت الرجل الضيف ببرود وترو :

ـ هل حقا ان سوزان ماتت جوعا،ام ان الموضوع مبالغ فيه ؟

ـ ليست هناك اية مبالغة ، كنت تتاكد من ذلك لو رأيت الفقر المخيم على بيتها .

اجاب الرجل

سألته مرة اخرى ، وانا اشدد على مخارج الكلمات :

ـ اما كانت تملك حتى حفنة من الرز لتسد رمقها ؟

الان حدث ما كنت اريده ، فقد طعنت زوجة ابي في الموضع المناسب .

استدارت نحوي قبل ان يتكلم الرجل ، واخذت تحدجني بنظرات تنزف الما ويأسا ، نظرات انسان مريض لا يستطيع ان يتحمل من الآلام اكثر . وكانت الدموع تتراقص في عينيها ، ثم اسبلت جفنيها واحنت راسها بانكسار .

اما والدي فقد ايقنت انه يمتلىء غيظا فوق مقعده ، لقد فهم الموضوع تماما ، وادرك حالة زوجته رغم صمتها .

ثم بدانا نصغي الى الرجل :

ـ « سوزان البائسة لم تكن سوى شبح انسان ، جلد على عظم، غذاء رديء وربما لم تكن تحصل على الطعام اطلاقا . لم تكن المنكلة حفنة من الرز، بل انها كانت محظوظة لو حصلت على الماء الكافي للشرب ، ولكنها لم تلم احدا ، حتى ابناؤها الذين كبروا واخذ كل طريقه في مسالك الحياة ، كانت تعذرهم ، فلهم مشاكلهم التي تشغلهم ، وكانوا بعيدين عنها » .

هنا .. احنت زوجة ابي راسها واخذت تنظر الى قدميها ، وادركت ان لصبرها حدا وانني اطعنها طعنات مميتة ، ولكن شعورا من التحدي والاصرار كان يعصف برأسي ،فصحت بها ساخطا :ـ

ـ حفنة من الرز كانت تصون لها حياتها ، هل تسمعين يامانويلا؟

انتفضت زوجة ابي بيأس كطائر مجروح ، وانا انظر في وجهها لارى ما ارتسم عليه من علائم الاسف والالم على ما جنت يداها يوما بحق سوزان ، ولكنها تمالكت نفسها بعد ان نجحت في جلب اهتمام والدي تماما ، ثم سادت لحظات صمت ثقيلة بيننا الى ان تكلمت قائلة :

ـ سوزان كانت سارقة .

ـ لماذا تقولين هذا يا مانويلا، كلانا يعرف ذلك جيدا ، ولكن الا تعتقدين بان السرقة كانت فرصتها الوحيدة لانقاذ نفسها من براثن الجوع والموت ؟

تقابلنا وجها لوجه ، والدي يحملق في وجهي بحنق ، نظراته

تزلق على وجهي بقعر ، ولكني تعاذيت في عنادي وهيأت نفسي لكل احتمال ، فقد وصلنا الى النقطة التي بسببها كانت حياتنا جحيما لا تطاق لسنوات طويلة ، تكلمت هي :

ـ لا يجبر احد على السرقة ، وقد نالت سوزان ما كانت تستحقه من جزاء على فعلتها ، وستنال انت ما تستحق لوقاحتك .

طارت البقية الباقية من الصبر من راسي ، فصرخت فيها :

ـ وستنالين انت ما تستحقينه الان ، الان ايتها اللعينة، الاتعتقدين انه كان من العدل ترك سوزان لتأخذ حفنة الرز المخبأة تحت ثيابها قبل احدى عشرة سنة ؟

بهت والدي، واصفر وجهه ، هذا اكثر مما كان يتوقعه مني تجاه زوجته ، واكثر مما كانت هي تستطيع احتماله بسبب مرضها .

ـ اللعنة عليك وعلى سوزان ايها الولد العاق . قال والدي واتجه نحو زوجته التي نهضت من مكانها مرتجفة ، والتي بدت وهي لا تستطيع الوقوف على قدميها ، ثم تبدلت سحنتها ورفعت يدها الى صدرها .

ـ كوني هادئة يامانويلا ، واسندي جسمك عليّ .

انتابتها نوبة سعال حادة ممزقة ، ومال جسمها الى الامام ، الا ان والدي حال دون سقوطها ، غمرتها حالة تشنج عنيفة ، وبصعوبة طلبت اخذها الى الفراش . تجمدت نظرات والدي المذعورة على وجهها وهو يعاونها على اسناد جسمها الواهن اليه . نظرت نحو الرجل القادم من القرية ، كان هادئا جدا تجاه ما يحدث ، ففمرتني كراهية قاتلة نحوه ، وخالجني شعور مفاجيء بان ما يجول في خاطره هو نفس الفكرة التي يحملها عنا جميع من يعرفوننا في القرية « انتم هكذا دائما ... اناس معقدون » شعور في عدم الاطمئنان تغلغل في اعماقي لما فعلته ، تخيلت سوزان فرأيت وجهها الاسمر العطوف يستقبح سلوكي، وعلامات الحزن والاسى تملأ عينيها . توقعت سيلا من الشتائم واللعنات حين ظهر والدي، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، كان قلقا جدا ومضطربا، اخذ مظلته وهمّ بمغادرة البيت حين سألته :

ـ ما الذي حدث ؟

ـ ابق هنا ، ساذهب لاستدعاء الطبيب . كان يتكلم باضطراب شديد لدرجة شعرت بتهدج صوته وانكسار نبراته . ترك الغرفة متعثرا ولم يتفوه بشيء حول سلوكي مع زوجته . مرة اخرى استعدت ما حدث تماما ، وحاولت ان افهم هل اخطأت بعملي تجاه مانويلا ، ولكني لم استطع ان اجد جوابا ، فنظرت تجاه غرفتها ، كان الباب مغلقا ، كنت متأكدا ان حالتها خطرة وانها ستموت والا لبقي والدي معها فترة اطول ، ولاخبرني بما حدث لها ، لقد عرف هو الاخر بانها ستموت، فاسرع لاستدعاء الطبيب ، لم تكن لديّ فكرة واضحة عما سأفعله، كنت متأكدا انها ستموت ، وساظل احتقر نفسي لانني تسببت في موتها كما تسببت هي في موت سوزان . تخيلت سوزان ثانية ، في هذه المرة رأيتها تبكي بمرارة وذل ، وحفنة من الرز تسقط من بين ثيابها على الارض بالقرب من حذاء مانويلا الثمين . تبكي وتتوسل ومانويلا تسب وتلعن ، فشعرت بدوار عنيف يلفني . جلست بجانب الباب . ومرت الدقائق ببطء ثقيل يكتم الانفاس ، واخيرا سمعت خطوات تقترب، لقد احضر والدي الطبيب . دلفا الى الغرفة ، واوصد والدي الباب. وبدأت انتظر مرة اخرى .

الرجل الضيف ، كان يمشي جيئة وذهابا في الصالون حاملا قبعته في يده . كنت اراقبه ورأسي يموج بافكار غامضة لم استطع ان اميز منها شيئا . لا ادري كم من الوقت انقضى حين رفعت رأسي ورأيت والدي امامي ، فادركت ان الطبيب قد غادر البيت .

ـ تعال معي . قال هذا ثم سار امامي الى ان وقفت في المطبخ. واخذ ينظر في عينيّ كأنه يريد ان يستشف ما في صدري .

ـ الا تدري انها ستموت ؟ قال هذا بصوت وشت نبراته بانه يضبط نفسه بصعوبة ، لم اتفوه بشيء ، وفي خلال لحظات استرجعت في ذهني ما مضى من حياتي معها، خصامنا الدائم ، الكراهية التي احملها لها ، ثم يدها وهي تفتح « بلوزة » سوزان وحفنة الرز تسقط منها على الارض قرب حذائها الثمين . وانتفضت على صوت ابي وهو يقول بخشونة :

ـ اذهب لتراك قربها .

نفذت ما أمرني به دون تفكر ، وفي طريقي الى غرفتها لمحت الرجل الضيف جالسا لوحده ،وكيس الليمون الذي جلبه لنا من القرية لا يزال ينتصب كتمثال قبيح في مكانه . « هل جاء هذا الرجل متعمدا في هذا الوقت ليخلق لنا هذه المشكلة » ، هكذا كنت افكر حين مررت به في طريقي الى غرفتها . ادرت مقبض الباب ودخلت .

رجفة خفيفة سرت في اوصالي ، واجلت بصري في الغرفة، كان كل شيء في مكانه ، فراشها ، الصور المعلقة ، رائحة الدواء والعطور التي استعملتها قبل قليل لا يزال اريجها في الهواء . وشيئا فشيئا اتجهت بنظري اليها . كانت ممددة على السرير ومغطاة حتى صدرها، وكان صدرها يعلو ويهبط بدون نظام .

شعرت بجو الغرفة يجثم على صدري ويكتم انفاسي، فرغبت في الهرب ، في نفس اللحظة تناهى اليّ صوتها وهي تغمغم باشياء لم اميز منها شيئا ، الى ان وضحت نبراتها شيئا ما ،وبدأت تتكلم :

ـ ماذا كان يحدث لو ان سوزان لم تعش بيننا ابدا ..

ـ لا ادري ... اجبتها بصوت جامد .

ـ ولكني اعلم ،قالت وكأنها استردت بعض قواها المنهارة، ثم اخذت تتنفس بعمق .

ـ لو لم تعش سوزان بيننا لكانت حياتنا مختلفة تماما .

فتحت عينيها بتثاقل ،واخذت تنظر الى الاعلى .

ـ هل تذكر كيف حدث ..؟

ـ نعم اذكر جيدا . قلتها بحدة .

وتكلمت بذل وانكسار :

ـ لم تكن هناك حاجة لاتيان ذلك العمل القبيح .. اليس كذلك ؟

ـ بالطبع ، ولكنك قمت به بوقاحة ، ولم تخجلي من صراخ امرأة في الاربعين من عمرها ، الا تذكرين وجهها كيف كان وهي تبكي وتصرخ من الخجل ؟

لم احاول ان ابدل لهجتي اثناء الكلام ، وانحنيت عليها لارى وجهها ، ولكنها بدت وكأنها لا تعي شيئا ، لم اكن متأكدا هل انها ما زالت حية ام لا ، ولكنها بدأت تتكلم بضعف .

ـ لا اتذكر وجهها كيف كان ، وانما كنت اسمع صراخها وتوسلاتها كنت انظر اليك لارى رد فعلك لضبطها وهي تسرق .

ـ ولكنك لم تنتظري طويلا لكي تري،

ـ كنت هائجة جدا .

ـ اما كنت تعرفين بان سوزان كانت امي ، او انها اصبحت امي بعد ان ارضعتني مع طفلها الاصغر .

مانويلا لم تتفوه بشيء ، الا انها اقتربت برأسها من حافة السرير واخذت تنظر اليّ .

ـ ساعترف لك بكل شيء ،فهل تسمعني ؟

اومأت براسي مجيبا . ثم بدأت تتكلم بنبرة غريبة وددت لو لم اسمعها ابدا .

« دخلت بيت والدك كزوجة قبل والدتك ، وقد جمعتني رغبة عابرة كان ذلك في مزرعة جدك ، ووالدك الشاب هناك ، وكنت فتاة يانعة، كان الوقت ربيعا والحقول الخضراء اخرجت كل زهورها الجميلة والحيوانات في موسم الحب . كنا نتمشى في الحقل ،وحين وصلنا الى مكان خلف سياج المزرعة ، لم يتمكن والدك ان يكبح جماح نفسه ولم استطع ان اوقفه عند حده ، وهكذا تم كل شيء بسرعة . وفي اليوم التالي هيأت والدتي الحقائب ، واوصلنا جدك الى الطريق ، لقد غرقت والدتي بالامر

ولم اكن اهتم لذلك ، كنت افكر بالطفل الذي سيولد لي ، ماذا افعل به . وفي احد الايام جاء جدك واخذني الى البيت كزوجة لوالدك لاجل الطفل الذي سيولد لنا . وتتابعت الايام بعد ذلك وانا انتظر ولكن الطفل لم يأت ، لقد كنت اشبه بالقشرة الفارغة ، الجنس والعبث والعقم .»

توقفت عن الكلام وبدت منهارة تماما وتبدلت ملامحها بغرابة ، ظننت انها لن تفتح فمها ثانية ، وتحولت عنها ولكن اخرجت يدها من تحت الغطاء ، فتوقفت .

ـ هل تنتظر قليلا ، قالت.

« ثم دخلت والدتك البيت كزوجة ثانية ، كانت صغيرة وجميلة ، ولم اكن كذلك .

وبعفوية رفعت نظري الى صورة والدتي المثبتة في الحائط ، لقد كانت مانويلا صادقة، لم تكونا متشابهتين في شيء !. العنق العاجي الطويل لوالدتي ، ووجهها المشرق الجميل ، وعيناها الواسعتان . اما مانويلا فلم تكن تملك شيئا من هذا .

ـ « تزوجا وفي يوم مولدك ماتت هي ، كنت آنذاك بعيدة عن البيت لم اعرف من الامر شيئا ، لقد كانت سوزان معها ، وكان لها طفل ولد قبل اشهر فارضعتك معه . ثم فابلني والدك وارجعني الى البيت ثانية ، حسنا ماذا كنت اريد اكثر من ذلك ، ولكني لم اتغير ، فقد بقيت نفس القشرة الفارغة » .

هذه المرة سكتت نهائيا ، وسقطت ذراعها من فوق صدرها على جانبها ، واخذت اعد لا شعوريا ، واحد ، اثنين ، عشرة ، عشرين، حتى لم يبق أمل في الاستمرار . كانت الكراسي مبعثرة في انحاء البيت ، ورائحة زهور قوية تملأ المكان . برزت الحقيقة امامي غريبة مفجعة ، وغمرني هيجان عنيف من أصوات الناس الذين يحاولون التحدث بهدوء . الرجل الذي جاءنا من القرية بات عندنا تلك الليلة ، وكان يتنقل من مكان لآخر دون ان تبدو على وجهه امارات التعب او التذمر، كان طبيعيا جدا ، يدخن ويتكلم قليلا ، ولم يكن يهتم لتجاهل الحاضرين له اثناء الكلام ، كنت اراقبه ، وجهه الهادىء وغليونه الذي لا يفارق يده . وكان يشغل ذهني سؤال لم استطع التهرب منه: « لماذا نظرت مانويلا الي اثناء ضبطها لسوزان وهي تسرق ؟» كنت احاول الاجابة على هذا السؤال حين اقبل والدي . كانت ملامحه قد تغيرت تماما خلال الساعات الست التي مرت على وفاة مانويلا ، سحب كرسيا وجلس بجانبي ، ثم أخذ يتكلم بلا مقدمات :

ـ « انت تعرف بماذا تحس المرأة العاقر » ثم سكت واخذ ينظر الى النعش المسجاة امامه بذل والم ، وحول عينيه الى الشموع المنتشرة في البيت والى كل شيء قبل ان يبدأ بالكلام ثانية :

« كانت مانويلا تعرف منذ البداية ان سوزان تسرق ، وكنت اعرف ذلك ايضا ، ولم ترغب في طردها ، وكانت تعرف مدى كرهك لها، كنت تحب سوزان ولا تفترق عنها ابدا ، الرجل يرغب في الاطفال بلا شك ، ولكن المرأة ترغب اشد واكثر . الفكرة جاءتها فجأة وبدون تعمد، فاذا بدت امامك ناحية سوزان السيئة فانك ستمقتها وتتركها وتتجه نحو مانويلا ، هكذا اعتقدت ، ولكن الذي حدث كان عكس ما توقعته، وباتت تلك الليلة باكية تنتحب على ما جنته يداها بحق سوزان وبحقك، لقد كانت مانويلا هي الاخرى تحبك » .

توقف والدي عن الكلام، اما انا فلم استطع ان اتفوه بشيء ، واخذت اردد عيني بين اليمين والشمال ، ثم احنيت رأسي . كنت ارغب في الهرب والتخلص من هذا الجو الخانق ، والذهاب الى حيث لا يمكنني رؤية احد ولا التحدث في هذا الموضوع ثانية . واذا ما تمكنت من الخلاص من هذا العذاب ، فانني لن افكر في سوزان ، بل سأفكر في مانويلا ، وانمنى ان اعرف اشياء كثيرة اخرى عنها .

ترجمة عبدالوهاب الداقوقي

صدر حديثا

العمل الفدائي

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على أرض يحتلها العدو ، ويرفض اهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه، والاساليب الاجدى في الدعوة اليه وممارسته والظفر بعد ادائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة اليه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح افضل السبل لنصب الكمائن ولغم العربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين — الثمن ٢٠٠ ق.ل.